اللغة العربية بين الواقع والادعاء

الأستاذ محمد محمد الخطابي

لقد كثرت الدراسات ، وتعددت المناقشات فى ايامنا هذه ، عن اللغة العربية وعن مدى قدرتها على استيعاب علوم العصر ، وتخوف فريق من عدم امكان اللغة العربية مسايرة هذا العصر المتطور المذهل . كما تحمس فريق آخر فأبرز امكانات هذه اللغة مستشهدا بتجربة الماضى حيث بلغت اللغة العربية فيه فى نقل العلوم وترجمتها شأوا بعيدا ، ولقد كثر الكلام فى هذا المجال حتى كاد يصبح حديث جميع المجالس والمنتديات فى مختلف البلاد العربية ، فهل تعانى العربية حقا من هذا النقص ؟ وتعيش نوعا من العزلة لدرجة انها فى حاجة الى دفاع ومناقشات من هذا القبيل ؟

واحقاقا للحق يمكن القول بأن اللغة العربية ليست فى حاجة الى ارتداء درع الوقاية يحميها هجمات الكائدين ويرد عنها شماتة المغرضين ، اذ تؤكد كل الدلائل قديما وحديثا — ان هذه اللغة — كانت وما تزال لغة حية مكتملة الجوانب اللهم ما يريد ان يلحق بها بعض المتشككين من نعوت وعيوب كانت قد اثارتها زمرة من المستشرقين الحاقدين فى منتصف هذا القرن حيث أوجدوا موضوعات لم يكن لها وجود قبلهم ، وما كانت لتعد مشاكل ونواقص تحول دون الخلق والتأليف والابداع . وانما كان الغرض من خلق هذه المشاكل اثارة البلبلة بين ابناء هذه اللغة وبث الشكوك فيما بينهم ازاء هذه اللغة التى يعرفون هم انفسهم جيدا انها لغة تتوفر على جميع مقومات اللغات الحية المتطورة الصالحة لكل عصر ، ثم هم فعلوا ذلك متوخين القضاء عليها واحلال محلها لغة المستعمر الدخيل ، من هذه المشاكل التى اثيرت على سبيل المثال ، مشكلة الحرف العربى ، مشكلة النحو العربى ، مشكلة الشكل ، العامية والفصحى .. الخ.

ويجدر بنا أن نتوقف قليلا عند كل نقطة من هذه النقاط فى محاولة معرفة هل هى حقا مشاكل حقيقية تعانى منها اللغة العربية ام ان لغتنا براء من هذه الادعاءات ؟

اما بالنسبة للحرف العربى فقد تعددت محاولات اصلاحه وتحسينه ولكنها باءت كلها بالفشل الذريع، وظلت الغلبة للاشكال المتوارثة التى كتبت بها عشرات الآلاف من الكتب فى مختلف الميادين العلمية والفلسفية والادبية .. وسواها ، قالوا ان شكل

الحرف الراهن وتركيبه لا يتفق والعصر ، وان رصف صفحة بالخط الفرنجي يعادل فى الزمن رصف صفحتين فى الخط العربى لتزايد عيون الحرف العربى التى تتعدد وتتغير بتغير مواقعها فى الاول او الوسط او الآخر وهكذا .. فتقدم لنا كثير من الباحثين اشكالا متباينة لخط جديد تشبه الى حد بعيد رسوم الخط الفرنجي ، غير أن القارىء العربى يكتشف منذ الوهلة الاولى انها فى غالبيتها اشكال غريبة عليه يمجها ذوقه العربى السليم ، بل انها فى بعض الاحيان تكلفه عناء شديدا فى هجاء حرف واحد منها ! والحقيقة التى تتضح بعد ذلك هى أن جمالية الخط العربى أو حرفه لا تبارى « فقد ثبت الآن أن الحرف العربى حرف مثالى فى جمال تكوينه وشكله وتنوعه والتوائه واستوائه وتعريجاته واختصاره ، وأن الصفحة الواحدة من الكتاب العربى لو كتبت بالحرف اللاتينى لاحتاجت الى صفحتين على الاقل ، فالكتاب المؤلف من مائة صفحة بهذا الخط الجميل لا يمكن رصفه بأقل من مائتى صفحة بالحرف اللاتينى ، ثم ان تطور الطباعة اليوم يتجه اتجاها سريعا نحو اللونتيب والمونوتيب . ومعنى ذلك هو العدول بالتدريج عن اسلوب الرصف الحرفى واختصار القوالب الى نحو 160 فقط ، وقد توصل بعض العلماء الى ابتكار رسم حديث للحرف العربى لا يخرجه عن شكله ولا يبعده عن اصله ولا تزيد قوالبه على المائة والامل قريب بتوفيق جامعة الدول العربية الى حل مشكلة الحرف حلا سريعا وموضوعيا تسهل به الكتابة على الراقنة وفى المطابع بحيث تسقط دعوى الداعين الى الحروف اللاتينية وينعقد خصومنا معركة » (1) .

حقا انه لمن السخف أن نجد بين ظهرانينا من تسمح له نفسه بالدعوة الى استبدال الحرف العربى بالحرف اللاتينى متخذين مما ابتدعه مصطفى اتاتورك للغة التركية مثالا يحتذى وكذلك بدعوى السهولة واليسر وضبط الكتابة وابراز حركات الحروف ، وهذه دعوى باطلة من اساسها تحمس لها بعض ذوى النيات السيئة من اعداد هذه اللغة عربا كانوا ام اجانب ، ومن بين المفكرين الذين تحمسوا لهذه الدعوى ذوى الثقل الخاص فى العصر الحديث يذكر اسم الكاتب سلامة موسى فى مصر الذى تحمس لهذه الفكرة وقدم تبريرات ومقترحات فى شأنها يقول فى هذا الخصوص : « هذا السخط الذى يتولانا كلما فكرنا فى حالنا الثقافية وتعطيل هذه اللغة لنا عن الرقى الثقافى ، تزيد حدته كلما فكرنا وادى بنا التفكير الى اليقين بأن اصلاحها مستطاع ، والقلق عام ولكن الجبن عن الابتكار اعم . ولذلك كلما نجد الشجاعة للدعوة الى الاصلاح الجرىء الا فى رجال نابهين لا يبالون الجهلة والحمقى مثل قاسم أمين ، او أحمد امين فى الدعوة الى الغاء الاعراب ، ومثل عبد العزيز فهمى حيث يدعو الى الخط اللاتينى هو وثبة المستقبل لو اننا عملنا به لاستطعنا ان ننقل مصر الى مقام تركيا (؟!) التى اغلق عليها هذا الخط ابواب ماضيها وفتح لها ابواب مستقبلها » .

ولقد قدم سلامة موسى بعض المقترحات نجملها فيما يلى :

هذا الاقتراح يحتاج اولا الى الغاء الاعراب وميزاته :

اولا : الاقتراب من التوحيد الشرى لانه وسيلة القراءة والكتابة عند المتمرنين الذين يملكون الصناعة اى العلم والقوة والمستقبل . وهذا الخط تاخذ به الامم التى ترغب فى التجدد كما فعلت تركيا ، ومن المرجح أن يعمم هذا الخط العالم كله تقريبا .

وثانيا : حين نصطنع الخط اللاتينى يزول هذا الانفصال النفسى الذى أحدثته هاتان الكلمتان المشؤومتان : شرق وغرب ، فلا نتغير من أن نعيش العيشة العصرية ولان يجر هذا الخط فى اثره كثيرا من ضروب الاصلاح الاخرى مثل المساواة الاقتصادية بين الجنسين ، ومثل التفكير العلمى والعقلية بل النفسية العلمية ايضا ، الخ .

وثالثا ورابعا وخامسا :

وسادسا : اننا عند ما نكتب بالخط اللاتينى نجد

---

(1) انظر مجلة « اللسان العربى » المجلد التاسع الجزء الاول ص 9 . ضمن مقال ثورية التعريب للاستاد عبد العزيز بنعبد الله .

أن تعلم اللغات الاوروبية قد سهل أيضا ، فتفتح لنا آفاق هى الآن مغلقة (2) .

ويختم سلامة موسى هذه المقترحات بالتساؤل التالى : « وبالجملة نستطيع أن نقول ان الخط اللاتينى هو وثبة فى النور نحو المستقبل ، ولكن هل العناصر التى تنتفع ببقاء الخط العربى والتقاليد ترضى بهذه الوثبة ؟

ان القارىء الكريم يلاحظ — لا شك — كم فى هذه الدعوة من مغالاة كما انه يتبين له ولا ريب انها لا تستند الى أساس سليم تبنى عليه وانما هى دعوة تخريب أكثر مما هى دعوة بناء ، فهى بالتالى دعوة باطلة كغيرها من الدعوات المشبوهة التى لا ترمى سوى الى تشتيت التراث العربى وتشويهه ، ولقد حاق بدعوة سلامة موسى فشل ذريع كما باءت بالفشل دعوات غيره من أمثال أمين شميل ، وعبد العزيز فهمى وقبلهما الدكتور سبيتا ، ووليم ويلكوكس ، وغيرهم من المغرضين . « وظلت السيطرة للحرف العربى » ثم ماذا كان سيفعل هؤلاء فى كثير من الحروف العربية التى لا تجد لها رسما سوى فى النطق العربى كحروف : الحاء ، والغين ، والعين ، والذال ، والضاد ، والطاء ، والقاف ، والثاء ، والهاء .. الخ . ثم ماذا سيكون موقفهم من التراث العربى المكتوب بحروف عربية ؟ وهكذا وئدت هذه الدعوة فى مهدها .

ننتقل بعد ذلك الى مسألة النحو العربى ، ان النشأ من متعلمى اللغة العربية يتكون من صعوبة نحوها ، والحق أنه ما من « نحو » فى أى لغة من لغات الارض الا ويعانى أصحابها من هذه الشكوى . ولقد أصبح « نحو » اللغة الالمانية مضرب الامثال فى الصعوبة والتعقيد على أن قواعد العربية ليست أشد صعوبة من هذه اللغة أو تلك ، يقول الدكتور : محمد كامل حسين فى دراسة قيمة له عن النحو العربى : « والواقع أن قواعد اللغة العربية بسيطة جدا يمكن الالمام بها بعد درس غير مرهق ، ولا يحتاج المتعلم بعد ذلك الا الى المران على تطبيق هذه القواعد الشاملة فيستقيم بذلك لسانه دون عناء كبير (3) . ان الخطأ الفادح الذى يقع فيه مخططو مناهج التعليم عندنا كونهم يلقنون القواعد فى صورتها الجافة قبل النصوص ، فى حين اننا نجد أن القائمين على مناهج التعليم فى المدارس الاوربية على اختلافها يعودون التلميذ على التعامل مع النص — فى المقام الاول — فهو يقرأ ويعيد ويحفظ من غير أن يكون ذا المام واسع بعلم النحو ، ثم يطبق — بعد ذلك ما قرأه على القواعد ، فماذا أردنا الخروج بنحونا من صلابته وجفوته علينا أن نكثر فى المراحل الاولى من مناهج تعليمنا من النصوص وما أغنى لغتنا العربية بشتى أنواع هذه النصوص على اختلافها ، فالتعامل مع النص يكسب الطالب أو المتعلم سليقة فطرية ويعوده بطريقة تلقائية على اشكال الحروف وبنائها وتراكيبها وتعدد أساليبها ، والتاريخ العربى يقول لنا ان النص سابق للنحو ، فقد وجدت النصوص منذ كانت العربية ، أما النحو « كعلم قائم مدون » فلم توضع مبادئه الا فى زمن متأخر جدا أى فى القرن الاول الهجرى أيام على بن ابى طالب ، وكلنا يعرف قصة أبى الاسود الدؤلى مع ابنته وغيرها من القصص التى تروى فى مجال سبب وضع النحو العربى .

لقد كانت العرب اذن تنطق بالسليقة ، ولا تخطىء أبدا فى كلامها من غير أن تعلم لماذا كان الفاعل مرفوعا ولا المفعول منصوبا ، كما أن كثيرا من علماء العربية وواضعى معاجمها المشهورة كانوا يقصدون الاعراب فى البوادى حيث العربية سليمة نقية غير مشوبة فيأخذون عنهم النطق الصحيح ، ومعروف عن الزمخشرى هذا حيث أنه فى « أساس بلاغته » كان يؤم البوادى العربية ويسجل المعانى المستعملة عندها وهكذا الشأن مع باقى لغويى العرب .

اذن فالشكوى من النحو هى شكوى من قواعده الجافة الموضوعة فى قوالب مملة شأنها شأن القوانين الجامدة ، أما اللغة العربية فالدليل قائم — قديما وحديثا — على أن المران والمتابعة والممارسة كل أولئك يكسب الدارس لها مهارة فائقة على التركيب

(2) سلامة موسى ، البلاغة العصرية واللغة العربية ص 109 . نقلا عن اللغة العربية وعلوم العصر ، للدكتورة بنت الشاطىء « اللسان العربى » المجلد الرابع عشر ج 1 ص 15 .
(3) مجلة « مجمع اللغة العربية » القاهرة ، فبراير 1971 ص 26 .

السليم والنطق الصحيح ، وكم من متعلم أو كاتب لم يدرس القواعد قط ومع ذلك يستطيع أن يكتب ويؤلف نتيجة الممارسة والقراءة المتواصلة ، ألم يقل الشاعر :

ولست بنحوي يلوك لسانه
ولكن سليقي أقول فاعرب

القول المعرب اذن توامه القراءة الكثيرة والخوض فى النصوص وهذا ما نرجو أن يتم فى مناهج دراستنا أى مضاعفة حصص النصوص ، وبالمقابل حسن اختيار القواعد ، وانطلاقا من النص ودراسته نستنتج القاعدة التى بنى عليها هذا النص ، وهذا مغناه التطبيق الفعلى للدراسة النظرية .. فأنت قد تتعلم أى علم من العلوم أو أى فن من الفنون ، الطب السياقة ، الخياطة .. الخ فى حجرة مغلقة تدرس قواعد هذا الفن أو ذلك العلم ولكنك فى الحقيقة لن تفيد شيئا الا اذا طبقت ذلك بطريقة عملية فتكسب من ثم مهارة التطبيق مع حسن النظر والدرس .

وكم هى محاولات تبسيط النحو العربى التى تقدم بها كثير من الدارسين فى مختلف البلاد العربية غير أنه ظل ما يقدمونه حبرا على ورق مبثوثا فى مختلف ادراج المؤسسات اللغوية العربية دون أن يغير شيئا من المشكلة القائمة ، الحل اذن يكمن فى محاولة الاكثار من النصوص بما يتلاءم ومستوى المتعلم ..

أما مسألة الشاذ فى اللغة الذى يخرج عن المألوف والاستعمال يظل صورة متحفية لنطق بعض القبائل العربية القديمة لا ينبغى أن نأخذ به ، فالشاذ أو النادر لا حكم له كما يقال . وتنبثق عن مسألة النحو العربى مسألة أخرى يرى فيها البعض مشكلة قائمة بذاتها لا تقل أهمية عن غيرها من المشاكل التى تعانى منها اللغة العربية ، وهى مسألة « الشكل » شكل الحروف العربية تفاديا للغموض واللبس والابهام وتعدد المفاهيم . وهناك اتهام مشهور يوجه لابناء اللغة العربية — فى هذا الصدد — وهو أنه حتى كبار دارسيها يحارون أو يتعثرون فى بعض الاحيان عند قراءة نص من النصوص العربية مخافة الخطأ او اللحن ومن أجل شكلها شكلا صحيحا . على حين أننا نجد القارىء الفرنسى — مثلا — حتى وان كان دون مستوى مرحلة الباكالوريا يقرأ النصوص فى لغته بطلاقة من غير أن يرتكب خطأ واحدا ، وهذه من أخطر الاتهامات التى توجه للغتنا ويرى فيها الباحثون رأيين الاول يقول : ان اللغة العربية ليست صعبة كما يدعون ، بل ان النقص كامن فينا لا يجيدها حق الاجادة ، واذا كان المرء عالما بأصولها ، مطلعا على أسرارها ، دارسا لقواعدها ، ملما بأساليبها ، فانه لن يخطىء أبدا ! فى حين يذهب الرأى الآخر الى عكس هذا على الاطلاق فيقرر أن العربية فعلا تشكو من هذه النقيصة ، فيما يخص شكل الكلمات على الاقل ، حقا هناك كلمات يحار المرء فى قراءتها القراءة الصحيحة وقد يقرأها على غير حقيقتها . وهناك أخرى يمكن نطقها على خمسة أو ستة أوجه ، وهذه مشكلة فى حد ذاتها ولكن كما أسلفت مع المران والقراءة المتعددة وتتبع السياق كل ذلك يساعد على تفادى أمثال هذه الامور التى لم تحل أبدا دون التأليف والخلق والابداع المستمر على امتداد تاريخ العربية الحافل بجليل الآثار فى كل علم . وبخصوص « الشكل » اقترح بعض الدارسين ضرورة الزام الحركات مع الكلمة بتصويرها فى آخرها بحيث تشكل حرفا جديدا قائما بذاته ، فى حين اقترح آخرون كتابتها بازاء كل حرف على غرار الحرف اللاتينى !

وقد بذل بعض العلماء العرب محاولات موفقة فى هذا الصدد ، فقد وضع بعضهم رسومات للخط العربى لا يتطلب الطبع بهذه الحروف الجديدة سوى الى تسعين حرفا فى حين كان يتطلب الطبع بالحروف العربية العادية بالشكل التام خمسة وسبعين وأربعمائة حرف من الحروف المحززة (التى حززت لتتراكب وتتداخل) وما يزيد على ثمانمائة حرف من الحروف الغير المحززة » (4) .

وقد طبقت بعض هذه النماذج فى بعض الكتب والصحف المغربية فلاقت اقبالا واستحسانا وهى لعمرى حروف مقبولة لا غبار عليها ، من أهم مميزاتها الزامها الشكل فى جميع الحالات ، ثم هى لا تغير من صورة الحرف العربى ولا تفقده جماليته .

(4) انظر الرسم النموذجى لمشروع اصلاح الطباعة العربية (اللسان العربى) ، المجلد التاسع الجزء الاول ص 218 بتاريخ 1972 ، للأستاذ أحمد الاخضر غزال .

وحار قوم فى هذا العصر فى استعمال الفصحى ام العامية ؟ ولقد تعددت الدراسات فى هذا المجال بين مؤيد للعامية متعصب اعمى لهـا بدعـوى التبسيط والسهولة واليسر ، وبين مستمسك بالفصحى لا يرضى بها بديلا ، والحقيقة التى اثبتتها السنون ان الغلبـة دائما كانت للفصحى ، على الرغم من كيد الكائدين فكم من كاتب نادى وتحمس بل وكتب ووضع تعابير خاصة للعامية (5) قصد نشرها وتعميمها فى محاولة القضاء على الفصحى ، والغرابة ان هؤلاء الذيـن كانوا متحمسين للعامية عادوا جميعا يكتبون بلغـة عربية فصحى ناصعة صافية نقية سليمة وفى فترة ما من فترات حياة اديبنا الكبير المرحوم محمود تيمور كان قد تحول عن الفصحى الى العامية بل انه كتب قصصا بها غير انه سرعان ما عاد ، كاتبا عربيا مبينا بل ومتحمسا كبيرا للفصحى ومدافعا عن لوائها كعضو بارز فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة احـد اعـرق معاقل الدفاع عن الفصحى وتراثها ..

ان العالم يركض ويجرى من حولنا والحضارة تقذف الينا بعشرات المصطلحات يوميا ، والاختراعات تلو الاختراعات تترى فى حياتنا المعاصرة .. والسنون لا ترحم ، تطوى بعضها طيا ، ونحن ما زلنا نطيـل النظر ونتبادل الراى فى أمور كان ينبغى تفاديها منذ نصف قرن كاننا نحيى لغة مواتا وكان لم يكفنا دليلا شهادة اربعة عشر قرنا من الزمان (على حد قـول ماسنيون) برهنت فيها اللغة العربية بانها كانت دائما لغة علم بل وقدمت للعلم خدمات جليلـة باعتـراف الجميع كما اضافت اليه اضافات يعترف لها بها العلم الحديث ، فهى اذن لغة غير عاجزة البتة على المتابعة والمسايرة والترجمة والعطاء بنفس الـروح والقـوة والفعالية التى طبعتها على امتداد قرون خلت ، ويتضح لنا بالتالى ان ما ندعيه مشاكل فى اللغة العربية ليست سوى حواجز يضعها الحاقدون عثرة فى سبيل اللغة ويختلقها الناقمون على تراثها وحضارتها ، ولا اجـد ما اختم به هذا العرض خيرا من كلمة الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء ، التى تقول : « واذا كانت العربية قد صمدت لكل هذه الحملات الضارية التـى جاءتها من الاجانب الغرباء ومن ابنائها المغتـربين ، تجاربنا باللهجات العامية حينا وبالخط اللاتينى حينا آخر ، وتتهمنا بالبداوة والعقم فتعزلنا عن الميدان العلمى لتظل نائية بها عن روح العصر ، اقول اذا كانت العربية قد صمدت لهذه الحملات ، فلانها دون ريب تملك القوة والحيوية والصلاحية للبقاء ، مـا تاومت به محاولات المسخ ورفضت نبوءة المتنبئين لها بالموت » (6) .

---

(5) انظر كتاب : سلامة موسى البلاغة العصريـة واللغة العربية ص 75 . عـن بحث الدكتـورة بنت الشاطىء المشار اليه سابقا .

(6) اللغة العربية وعلوم العصر (بنت الشاطىء) من كتاب المؤلفة « لغتنا والحياة » .